تتمة للرسالة البابوية « Casti connubii »

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا اليسوعي

٢

الزواج المسيحي او سر الزواج

٢

٨ تعليم الكنيسة وتحديدانها في حقيقة سر الزواج

امّا كون الكنيسة المقدسة تعلم فعلًا انّ الزواج المسيحي هو حقيقة احد الاسرار السبعة التي رسمها المسيح الاله لتقديس النفوس ، فهذا اشهر من نارعلى علم . حسبنا دليلًا عليه كتب « التعليم المسيحي » التي يتداولها ، على مختلف اصنافها العديدة ، بكل اللغات ، تلاميذ المدارس الكاثوليكية جميعها ، كبارهم وصغارهم . وكلّها تشهد انّ كون الزواج المسيحي سرًّا هو عقيدة من ايماننا .

وقد انكرها البروتستانت . فانهم يُسلّمون أنّ الزواج هو من وضع الله ، الا انهم ينفون صفته السرية ، حتى إن عقد بين مسيحيين . فمنهم لوتيروس الذي لا يرى فيه علامةً مقدسة مرسومة من الله ولا نعمة موعودًا بها منه تعالى[1] . اما كالفين فعنده أنّ صفة السرّ لا تتحقق في القران المسيحي اكثر منها في احقر المهن البشرية[2] . وليس كل اشياع البروتستانت على رأي واحد في كيفية نبذ سرية الزواج .

(١ Lib. de *Captivitate Babylon.*, cap. de *Matrimonio*

(٢ Lib. IV, *Institut.*, cap. XIX, p. 34

اما سبب انكارهم لها فلم نُدركه . فمن جهة يقولون ، بخلاف الحقيقة الواقعية ، ان الاسرار باجمعها ، حتى التي لم يحذفوها من جدول السبعة الحقيقية ، هي عموماً عاريةٌ تماماً من كل فاعلية ذاتية ، وانها من نفسها ، اي بموجب القوة التي اودعها اياها منشئها الالهي ، لا يمكن ان تولي قابلَها النعمةَ بتاتاً ، وانما جلُّ ما تفعل فيه هو ان تثير فيه عاطفة الايمان ، التي هي ، في رأيهم ، الشرط الوحيد الضروري الكافي للتبرير فللخلاص . ومن جهة اخرى يدّعون أنّ القِران المسيحي ليس سرّاً حقيقيًّا . فعلامَ ؟ وما ضرَّ نظريّتهم العامة لو احصوه في عداد الاسرار ؟ أوَ تكون حفلة الاكليل ، بما تتضمنه من وعود وعهود مقدّسة متبادلة ، وصلوات وبركات ، اقلّ تأثيرًا في النفس من رتبة المعمودية ، ولاسيما معمودية الاطفال ، الذين غالباً ما يندفعون منها الى الصراخ والبكاء ، لا الى عواطف الايمان الفعلية وهي فوق طاقة سنهم ؟ ام تكون حفلة الاكليل اقلّ تأثيرًا في النفس من رتبة العشاء[1] وهي ، في زعمهم ، كمثل العماد ، عارية من اي فاعلية ذاتية ، تنشأ عنها النعمة ؟ ام لا تصلح حفلة القِران ، على قدر ما يصلح العماد والعشاء ، لاثارة عاطفة الايمان في العروسين المسيحيين التقيين ، فتحملهما على الثقة براحم الله للحصول على ما يحتاجون اليه من العون الرباني للقيام بواجب عهودهما المقدسة وتربية بنيهما على ما يرضيه تعالى ؟ ام يرفض اشياع الاصلاح الموهوم سرّية الزواج المسيحي كي يستهاوا فسخه بالطلاق[2] .

وقد ابطل اضاليلهم المجمع المسكوني التريدنتيني حيث قال يعلّم ويحدّد :

— ١ — « ان قال احد ان اسرار الشريعة الجديدة لم تُرسم كلها من سيدنا يسوع المسيح ، او انها اكثر او اقل من سبعة ، اي المعمودية والتثبيت والافخارستيا والتوبة والمسحة الاخيرة والدرجة والزيجة ، او ايضاً انّ احد هذه السبعة ليس سرّاً بالحقيقة ويحصر المعنى ، فليكن محروماً »[3]

---

١) كذا يدعو البروتستانت ما استبقوه ، اثرًا خفيفاً بعد عين ، من حقيقة سرّ القربان الاقدس .

٢) طالع تعليقات مونسيره ، ص ٢٦٢-٢٦٣

٣) الجلسة السابعة ، القانون الاول

– ب – « ان قال احد انّ اسرار الشريعة الجديدة لا تحتوي النعمة التي تمنحها ، او انها لا تعطي هذه النعمة عينها للذين لا يعترضون لها بمانع ، كأنّها ليست سوى دلائل خارجية للنعمة والبرارة اللتين يُحصل عليهما بواسطة الايمان ، وكأنها ليست سوى ضروب من ميزات الاعتراف بالنصرانية ، التي بها يُميَّز المؤمنون عن غير المؤمنين ، فليكن محروماً[1] . »

– ت – « ان قال احد ان ما يولّى باسرار الناموس الجديد ، بذات الفعل المفعول[2] ، ليس النعمة ، ولكن الايمان بالوعد الالهي للحصول على النعمة ، فليكن محروماً[3] . »

– ث « ان قال احد انّ الزيجة ليست ، بالحقيقة وبحصر المعنى ، سرّاً رسمه المسيح الربّ ، من جملة اسرار الناموس الانجيلي السبعة ، وانما هي اختراع من البشر في الكنيسة ، ولا تولي النعمة ، فليكن محروماً[4] »

ولمعلّمي الكنيسة ومجامعها واحبارها الاعظمين ، من قبل المجمع التريدنتيني بازمنة ، نصوص صريحة في حقيقة سرّ الزواج المسيحي . منها ما ورد في القانون الثالث والعشرين للمجمع اللاتراني الثاني ، المعقود سنة ١١٣٩ ضدّ منتحلي الحبرية ؛

---

١) الجلسة ذاتها ، القانون السادس

٢) كذا عرّبنا الوضع اللاهوتي المأثور « *ex opere operato* » . والمعنى واضح أكيد ، على ما يفسّره ارباب اللاهوت . ومؤدّاه أنّ منشئ الاسرار ، سيدنا يسوع المسيح ، قد أودعها ، في ذاتها ، فاعلية ، قلّما يكون ادية . ففي حال استيفاء شروطها ، من وضع نية صحيحة ، ومادة وصورة صالحتين ، واهلية واستعدادات لا بدّ منها في قابلها ، توليه النعمة من ذاتها ، وبمعزل عن حالة خادمها ، سواء أكان باراً ام خاطئاً . اما استعدادات قابلها فليست ضرورية فحسب ، بل على قدر ما تصلُح فيه على قدر ذلك ينلُ له البرّ نعمةً . والخلاصة انّ العلّة الفاعلية الاوّلية للنعمة السرّية هي الله تعالى ، والعلة الاستحقاقية هي المسيح الفادي والعلة الآلية هي السرّ بعينه من حيث هو من وضع الاله المتأنس المخلص . وعلى هذا النحو لا بدّ من حراثة الارض والاعتناء بها كيما تنلْ لصاحبها ، بل يستغلّ منها بنسبة جدّه وعنايته . لكنّ العلة الفاعلية لانماء الزرع ليست الزارع وانما هي الله . وهو تعالى علّة فاعلية أولى فيتخذ لعمله المطر والحرارة علّةً آلية

٣) الجلسة ذاتها ، القانون الثامن

٤) الجلسة الرابعة والعشرون ، القانون الاول

والفيروني المعقود سنة ١١٨٤ ضد الهراطقة الاليجيين ؛ وصورة الاقرار بالايمان التي قدّمها ميخائيل پاليولوغ للبابا غريغوريوس العاشر سنة ١٢٧٤ في مجمع ليون الثاني ، وقد أُقرّت فيه ؛ والتعليمات الموجّهة الى الارمن في ٢٢ ت٢ ١٤٣٩ من البابا اوجينيوس الرابع والمجمع الفلورنتيني ؛ والرسالة « *Cum apud sedem* » التي كتبها البابا اينوشنسيوس الثالث ، في ١٥ تموز ١١٩٨ ، الى رئيس اساقفة أرل ؛ ومرسوم البابا يوحنا الثاني والعشرين « *Sancta Romana atque univer-salis Ecclesia* » في ١ ك ٢ ١٣١٧.[1] هذا فضلاً عن الرسائل والمراسيم البابوية الاحدث عهدًا ، التي لا يسعنا المجال لذكرها.

٩ً تاريخ العقيدة بوجه تعليم الكنيسة في حفظ سرّ الزواج

غنيٌّ عن البيان انّ النصوص السينودسية والجبرية التي ذكرناها آنفاً ليست مما لا يستغني عنه ابن الكنيسة الحقّة كما يعتقد ويؤمن ان الزيجة المسيحية هي سرٌّ حقيقي . فحسبه ، على ما سبق لنا القول ، ان يكون هذا هو ايمان البيعة الجامعة في يومنا هذا ، كما ينطق به « التعليم المسيحي » ، فلا يبقى بعد سبيل الى التردّد في الاقرار به لحظةً واحدة. ذلك لانه لا يمكن ان يكون ايمان كل الكنيسة الحقيقية باطلاً في آنٍ من الزمن ، وقد وعدها مؤسسها الالهي ان يكون « معها كل الايام حتى منتهى الدهر . »[2]

غير انّ مقتضيات الدفاع عن الحقيقة الكاثوليكية لدى غير «اهل الايمان»[3] هي اوسع نطاقاً. ومن هذه المقتضيات ان تُبرَز الشواهد التاريخية المؤيدة للعقيدة التي نحن في صددها ، فلا يعود يمكن احدًا ان يحتجّ قائلاً انّ الكنيسة ، في المجمع الترينتيني وفي غيره من المجامع التي ذكرناها ، قد اخترعت عقيدة سرية الزيجة والزمت المؤمنين بها . ولاسيما انّ السلطة المطلقة في البيعة قد أيدت مرارًا المبدأ المأثور لدى ارباب اللاهوت وهو : أنّ مستودع الوحي الالهي الحق ،

---

١) طالع ، في مجموعة التحديدات لدنزينگر ، الاعداد ٢٦٧ ، ٤٠٢ ، ٤٦٥ ، ٦٩٥ ، ٧٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٦٠

٢) متى ٢٨ : ٢٠ ٣) غلاطية ٦ : ١٠

اي بمجموع الحقائق التي اوحاها الله وفرض على البشر ان يؤمنوا بها ، وهي التي تنطق بها الاسفار المنزلة والتقليد ، اما معاً ، واما كلٌّ منها على حدة ، قد أُغلق وخُتم نهائياً لدى موت الرسل ، فللكنيسة من بعدهم ان تُفسّر وتوضح وتشرح وتحدد ، بل ايضاً ان تكتشف ما تسلّمته منهم ، بالمستودع المذكور ، من الحقائق الموحاة ، وتعلّمها مؤيّدةً من الروح القدس معصومةً بقدرته عن الغلط ، ولكن ليس لها ان تخترع من ذاتها عقائد جديدة لا اثر لها في هذا المستودع[1] .

فهاك اذن ما يشهد به التقليد المتواصل .

— ١ — شهادات التقليد منذ القرن الثاني عشر الى ايامنا

واول ما يلفت نظر المؤرخ هو انّ حقيقة سرّ الزواج لم تزل تجاهر بها البيعة المقدسة وتعلمها علناً ، قلّما يكون منذ القرن الثاني عشر حتى ايامنا ، مما لا تبقي مجالاً للريب فيه النصوص التي ذكرناها آنفاً للمجامع المسكونية والاحبار الاعظمين وغيرها كثيرة قد أُثبتت في الكتب الطقسية ، ومجموعات رتب خدمة الاسرار ، ومؤلفات اللاهوتيين .

ومن شاء ان يطلع على هذه النصوص يجدها بكتاب « البحث اللاهوتي في الاسرار » للاستاذ پورا مدرّس اللاهوت في مدرسة ليون الاكليريكية[2] ، ولاسيما في صفحاته التالية : ٢٠—٤٦ ، ٨٤-٨٧ ، ١٤١-١٦٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٣٠٥—٣٠٧ [3]

فلسنا نرى ، والحالة هذه ، من حاجةٍ الى اطالة الشرح في هذا الباب . وما من احد يشكّ في ان الكاثوليك من علماء اللاهوت باجمعهم على رأيٍ واحد في

---

١) طالع المجمع الفاتيكاني ، الجلسة الثالثة ، الفصل الثاني والرابع والقانون الثالث في الايمان والعقل — والقضية العشرين المحرّمة بالقرار « *Lamentabili* » لمجمع التفتيش المقدّس (٣ تموز ١٩٠٧) — ورسالة پيوس العاشر « *Pascendi* » (٧ ايلول ١٩٠٧) — وتجد النصوص هذه في مجموعة دنزينگر ، في الاعداد ١٧٨٧ ، ١٨٠٠ ، ١٨١٨ ، ٢٠٠٢ ، ٢٠٢١ ، ٢١٠٦

٢) P. Pourrat, *La Théologie Sacramentaire*, Paris, Gabalda, 1907.

٣) طالع ايضاً مقال ليبرا (Le Bras) في الزواج في قاموس اللاهوت الكاثوليكي ، المجلّد التاسع ، ع ٢١٢٩-٢٢٢ .

شأن حقيقة سر الزواج ، وذلك قلّما يكون من القرن الثاني عشر ، ولاسيما منذ اثبت ، في القرن ذاته ، بطرس لومبار (Pierre Lombard) تحديد السرّ عموماً في بدء السفر الرابع من كتابه المشهور «في الحكم» (*Libri Sententiarum*)، وقد علّق عليه مشاهير اللاهوتيين ، في القرون الوسطى ، الشروح الضافية ، ان في تعاليمهم الشفهية وان في مؤلفاتهم المكتوبة . ولا تجد منهم من شذّ عن رأيهم ، في سرّية القران المسيحي ، سوى ديران (Durand) وحده . والمعلوم عنه انه لم ينفها تماماً ، وانما ارتأى انها لا تنطبق على الزواج بكامل معناها . وقد نحا نحوه بعض اشياع البروتستنت ومنهم ملنكتون[1]

ولاجماع آراء العلماء الكاثوليك على سرية الزواج ، بنوع متواصل من القرن الثاني عشر الى يومنا هذا ، شأن خطير ليس من حيث العقيدة فحسب ، بل من الوجهة التاريخية والدفاعية ايضاً . فانك ، حتى لو ضربت صفحاً عن عضد الروح القدس للكنيسة ، عبثاً تحاول ان تجد سبباً كافياً لتوحيد كلمتهم على الامر الواحد ، سوى تأصّل الحقيقة ، التي يجاهرون بها ، في مستودع الوحي ، كما تسلّمته الجماعة المسيحية من الرسل .

– ب – شهادة الكنائس الشرقية في سرية الزواج

والى النتيجة عينها يؤدّي بالباحث تعليل شهادة الكنائس الشرقية في سرّية القران المسيحي طبقاً للايمان الكاثوليكي . فقد انفصل قسمٌ منها عن الوحدة الرومانية في القرن الخامس بسبب البدع الكبرى والقسم الآخر في القرن التاسع بسبب انشقاق الروم . ولم تزل هذه الجماعات ، رغم انفصالها عن رومة ، معتصمةً الى يومنا هذا بالتعليم الكاثوليكي – الروماني في شأن عدد الاسرار عموماً وسرّية الزيجة خصوصاً . تشهد بذلك نصوص عديدة من مجامع تلك الكنائس وكتبها الطقسية وتصريحات بطاركتها وكتابها الكنسيين ، ممّا لا يسمنا المجال لسرده تماماً . فنحيل القارئ اللبيب الى ما أثبت منها في المجموعة المشهورة « *La Perpétuité de la Foi Catholique* » ، فيتضح له جلياً انّ النساطرة واليعاقبة والاقباط المنفصلين والارمن الغريغوريين يحصون الزيجة في

١) طالع تعليقات مونبره المذكورة آنفاً .

عداهما الاسرار السبعة ويعدّونها سرًّا حقيقياً[1]

اما الروم المنتمون الى الارثوذكسية فلديهم في ذات هذا الموضوع شهادات لامعة . وقد رأينا ان نُلخّص مؤداها هنا ، نقلاً عن الاستاذ بورّا في كتابه المذكور سابقاً ص ٢٦٢–٢٦٧ . فنقول :

حوالي العام ١٥٧٦ ارسل بروتستانت ڤيتنبرغ الى البطريرك القسطنطيني ارميا ترجمةً يونانيةً لصورة « اعتراف اوكسبورغ » المشهور *La Confession d'Augsbourg* ، املاً منهم ان يميلوا به ويرعاياه الى اضاليلهم .

فكان جوابه لوماً لهم وتفنيداً لمزاعمهم . ومما جاء فيه بشأن الاسرار التصريح هذا : « تقولون في الفصل السابع انكم تعرفون ايضاً كنيسة مقدّسة جامعة ، وانكم تختلفون على ما يجب باسرار الكنيسة ورتبها المقدسة . فعلى هذا يجب ان كنيسة المسيحيين المقدسة الكاثوليكية الرسولية هي واحدة ليس الا . . . والاسرار المقبولة في هذه الكنيسة الكاثوليكية عينها المسيحيين الارثوذكسيين ، والرتب المقدسة تُعدّ سبعة ، وهي المعمودية ومسحة الميرون الالهي والمناولة الالهية والدرجة والزيجة والتوبة والزيت المقدّس . وكما انه يوجد مواهب سبع للروح القدس ، على حسب ما قال اشعيا ، كذلك يوجد اسرار سبعة مفعولة من الروح القدس ، لا غير ولا اكثر . »

فتوهّم بروتستانت ڤيتنبرغ ان البطريرك لم يفهم مضمون « اعترافهم » فكتبوا اليه يحاولون ان يزيدوه ايضاحاً ، قالوا : « انّ الكنائس اليونانية تؤمن بوجود سبعة اسرار ونؤكد نحن أنه ليس الا اثنان منها[2] ينطبق عليهما هذا الاسم بمعناه المحصور . . . ولو شئنا ايضاً ان نطلق اسم السرّ على الاشياء التي حسن لدى الله ان يعني بها الامور السماوية الروحية ، لما امكننا ان نحصرها في العدد سبعة . وانما ندعو اسراراً الرتب التي وضعها الله وتتضمّن ، مع كلمة الوعد الالهي في شأن مغفرة الخطايا وتطفه تعالى علينا ، رمزاً خارجياً منوطاً بها . »

---

١) طالع ايضاً de Smet في مجلّده المذكور ص ١٤٠–١٤١ – وايضاً في كتابه « *de Sacramentis in genere* » ص ٨٦–٨٧

٢) اي المعمودية والافخارستيا

فلم يُبرهم البطريرك بالًا ولم يُجبهم بتاتاً. واذ اعادوا الكرة ثالثة ، قطع امامهم خطّ الرجعة ، راجياً ألّا يعودوا فيما بعد يكاتبونه في الشؤون الدينية ، وصرّح لهم انه ، ان كان من تبديل او تحريف في التعليم التقليدي بما يختصّ بالاسرار ، فليس ذلك مما يقع في الكنيسة الموكولة اليه.

ولا جرم ان تصريحات البطريرك ارميا هذه قد جاءت طبق معتقد جماعته تماماً . ولنا برهان على ذلك فيما حصل في ايام خلفه كيرلس لوكاريس وبعد موته.

كان لوكاريس هذا قد قضى زمن شبابه في ايطالية وسويسرة والمانية وليتوانية ، حيث عاشر البروتستانت وتشرّب مبادئ شيعتهم . الا انه حرص على كتمانها طيّ ذهنه حتى توقّق الى تسنم سدة البطريركية الاسكندرية عام ١٦٠٢ ، ثم في القسطنطينية ١٦٢١ . ففي السنة ١٦٢٩ نشر بجنيف صورة اعترافه المشهورة ، منقولةً الى اللاتينية . وفي السنة ١٦٣٣ الحق بها النصّ اليوناني[1] . وكان كيرلس في تلك الاثناء يُطلق لمبشري البروتستانت حرّية الكرازة في القسطنطينية ، مما اثار ، حتى في ايام حياته ، الاحتجاجات ، إلّم يكن عليه صريحاً ، فعلى التعليم البروتستنتي الذي كان يحتمي بظله ، ولاسيما فيما يتعلق بالاسرار . فكان القوم يناهضون التعليم المذكور في الاندية والمحاضرات والنشرات.

ولما ان توفي نشط خلفه كيرلس البيروي (Cyrille de Béroée) لتحريم بدعه بصورة رسمية . فعقد عام ١٦٣٨ في القسطنطينية مجمعاً حرّم ورذل « اعتراف لوكاريس » بنوده كلها . واليك تعريب حكم المجمع في البند الخامس عشر : « محروم هو كيرلس لانه يبتدع ويعتقد عدم وجود اسرار للكنيسة سبعة ، اي المعمودية والميرون والتوبة والافخارستيا والكهنوت والمسحة الاخيرة والزيجة ، على حسب رسم يسوع المسيح وتقليد الرسل وعادة الكنيسة ، بل يقول ضالاً انّ يسوع المسيح في الانجيل لم يُعطِ او يرسم الّا اثنين وهما

---

١) قال الاستاذ پورّا ، في كتابه المذكور ، في حاشية الصفحة ٢٦٤ : « انك تجد نص هذا الاعتراف في ذيل لكتاب جون ميخالسكو (Jon Michalcescu) : Hypatios tēs Aithōlias « *Die Bekenntnisse und die wichtigsten Glaubenszeugnisse der griechisch — orientalischen Kirche in Originaltext* » (Leipsig 1904).

المسيحية والافخارستيا .»

ومن نتائج اعمال كيرلس لوكاريس مؤلفات دقيقة وضعها علماء الارثذوكس دفاعاً عن التعليم التقليدي ، وقد اشتهر بينهم ملاتيوس سيريقوس (Mélèce Syrique) ، بروتوسنلوس البطريركية القسطنطينية († ١٦٦٤)

وبالرغم من هذا كله ظلّ البروتستانت الافرنسيون ، ولاسيما القسيس كلود ، مصرّين على الادّعاء بمطابقة مزاعمهم على معتقد الروم ، وذلك استناداً الى نصّ اعتراف لوكاريس . ومن ثمّ كتب واضع كتاب *La Perpétuité* « *de la Foi* » الى المسيو دي نوانتيل ، سفير فرنسة في القسطنطينية ، يسألونه «ان يستخبر الروم وسائر الشرقيين معتقدهم في موطنه » فاسفر سعي السفير عن مجمع عقده دوسيتاوس البطريرك الاورشليمي في كرسيّه عام ١٦٧٢ . ومما تُصرّح به اعمال هذا السينودس « أنّ الاسرار الانجيليّة في الكنيسة هي سبعة »

وكان البابا لاون الثالث عشر قد وجّه ، في ٢٠ حزيران ١٨٩٤ ، الى الامراء والشعوب رسالته « *Præclara* » المعروفة . فاجاب البطريرك القسطنطيني انتيموس وسينودوسه يجدّدون الاحتجاجات القديمة ، التي سبق ممثلو كنيستهم وفاهوا بها في المجمع الفلورنتيني ، ضد ادخال الفقرة «والابن » في قانون الايمان وبعض اصطلاحات للاتين ، مثل العماد بالصب واستعمال الخبز الفطير للتكريس والمناولة على شكل واحد . اما التعليم الروماني في شأن الاسرار عموماً وسرّية الزواج الحقيقية خصوصاً فلم يحتجّوا عليه بشيء .

– ت – تأصّل حقيقة سرّ الزواج في تعليم الرسل

فهل يبقى مجال للشك في اتفاق الكنيستين ، الكاثوليكية الرومانية من جهة ، ومن اخرى الشرقية بجميع فروعها ، على عقيدة سرّية اقران المسيحي ؟ وهل من تعليل معقول لمثل هذا الاتفاق المتين الثابت المتواصل على مدى الاجيال سوى تأصّله في التقليد الذي تسلّمه المسيحيون من الرسل انفسهم ؟

وفعلاً انّ من ينظر الى المسألة من الوجهة النفسية السيكولوجية ، لا يسعه الا ان يحكم باستحالة توحيد الكلمة بين الكنائس الشرقية على هذه

العقيدة ، لو كانت دخيلةً مخترعة ، وكلٌّ يعلم ما بين هذه الكنائس من الفروق العديدة العريقة في القدم ، التي كانت ولا شك قد حالت دون اجماع كهذا ، وهي ناشئة عن اختلافات متنوّعة في اللغات والاديان والاصطلاحات والنزعات الى غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره . وهب انَّ العقيدة التي نحن في صددها ليس موطن اختراعها في الشرق ، وانما وردت الى جماعاته المسيحية من مصدر غربيّ لاتيني ، بضاعةً جديدة اجنبية ، افتظنُّ انَّ الكنيسة الشرقية كانت ، بعد انفصالها عن الرومانية ، قد تلقَّتها وقبلتها عن رضى تام ، بدون ما احتجاج ولا تمحيص ، وهي التي لا تزال تلوم اللاتين على بعض عاداتٍ عرضية ، لا علاقة لها اصلًا بالعقيدة ، مثل الصاد بالصبّ وتكريس الخبز الفطير بل القطاعة عن الظفر يوم السبت ؟

أوَ ليس اقلّ ما يترتب على هذا كله ان عقيدة سرّية الزواج هي للكنائس المسيحية ، ان شرقية وان غربية ، ملك شرعي قد اثبته لها ، بدون ما معارض ، مرور الزمن منذ القرن التاسع حيث وقع انفصال الروم ، بل منذ القرن الخامس حيث قامت البدع الكبرى ؟

ولئن واصلنا تطبيق الاصول المنطقية على الوقائع ، افلا يتحتَّم علينا ألّا نقف في استنتاجنا عند القرن الخامس ، بل ان نتعدّاه حتى نبلغ الى عهد الرسل ، فنؤرخ فيه حجة تلك الكنيسة الكاثوليكية لعقيدتنا المنشودة ؟ وفعلًا هل يمكن ان يطرأ على تعليم الرسل تجديد او تبديل او تحريف بدون جدال ولا معارضة ، او ان كان ثمة جدال او معارضة ، فبدون أثرٍ لها في التاريخ ؟ واين تُرى عثر احد على اثر كهذا ؟ ام لا يحقّ لنا ان نطبّق على قضيتنا المبدأ الذي كان يقرع به ترتليانوس هراطقة عصره ، حيث يقول لهم : « هل من وجه للصواب في القول انَّ كنائس هكذا عديدة وهكذا عظيمة قد زاغت عن الحقّ ، حيث تنطق كلها بايمان واحد ؟ . . . فانّ ما وُجد لدى كثيرين واحدًا ليس ضلالًا ، بل انما هو تقليد . »[1]

(1 « Quad apud multos unum invenitur, non est erratum, sed traditum » (*de Praescriptione*, c. 28).

(لها بقية)